

الخصائص الصوتية والصرفية للغة العربية وأثرها في بناء المعجم

الأستاذ مسعود بودوخة

جامعة سطيف

مقدمة:

إذا تأملنا البنية الصوتية للغة العربية وجدنا أنها تكتفي بما يمكن أن يعد الحركات الأساسية الأشهر في اللسان البشري وهي الفتحة والضممة والكسرة، حيث حدد الدارسون المحدثون ثلاثة صوائت رئيسية تستخدم في اللغات كافة، هي (i) أي الكسرة و(u) أي الضمة و(a) أي الفتحة¹. وهنا ينبغي أن نسجل ملاحظتين:

* الملاحظة الأولى: أن السكون الذي يذكر أحيانا مع الحركات ليس حركة، بل هو عدم الحركة، وربما كان السبب الذي جعله يدرج أحيانا ضمن الحركات أنه يشكل في النحو - إلى جانب الحركات - علامة إعرابية يمكن اعتبارها العلامة العدمية أو الصفرية، وعلى ذلك فإذا ذكر السكون إلى جانب الحركات بما يشعر أنه أحدها فذلك من باب التغليب، أو التباس مفهوم الحركة (الصائت)

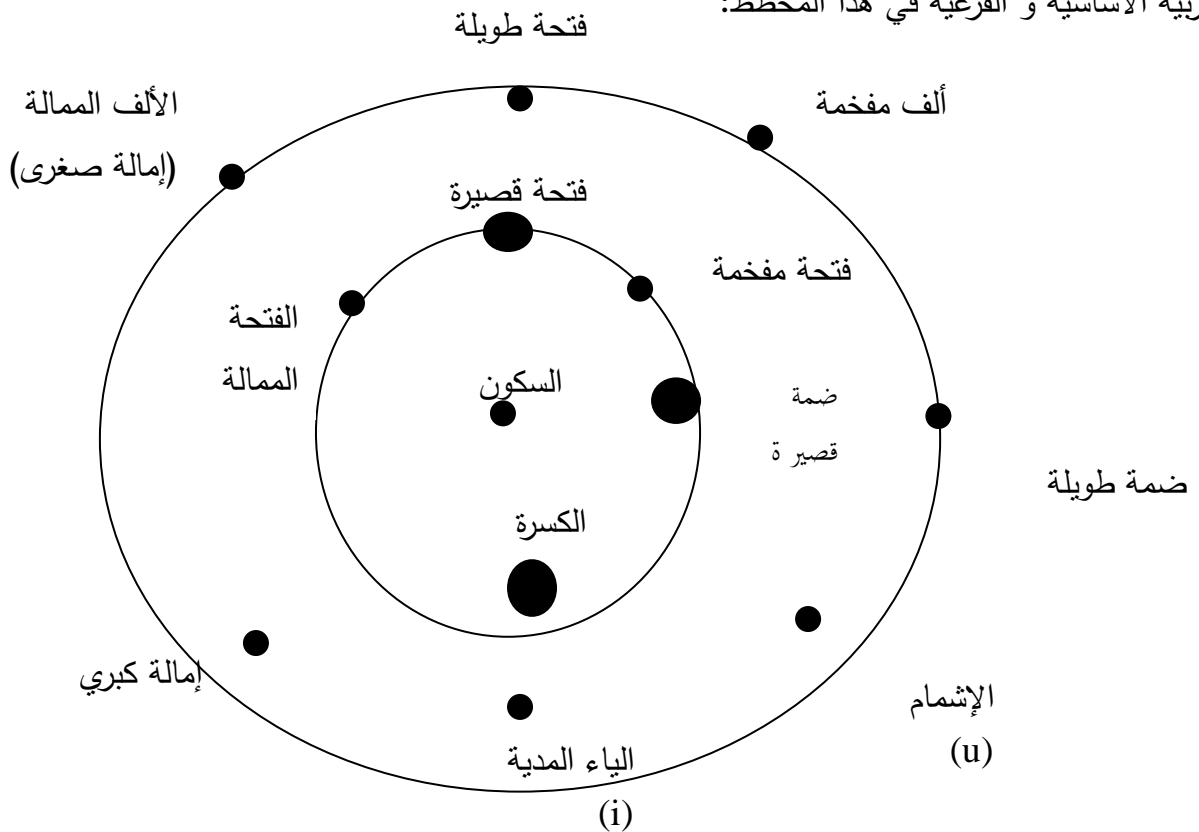
بمفهوم العلامة الإعرابية، و الدليل على ذلك أن الوقف يسقط الحركات فيحل السكون محلها، ونستأنس هنا بالمعنى اللغوي الذي يجعل الحركة في مقابل السكون.

* **الملاحظة الثانية:** أن اللغة العربية، لجأت لإثراء صوائتها بتنويع هذه الصوائت طولا وقصرا، مما يضاعف عددها من ثلاثة إلى ستة، وهذا التنوع في الحركات يساهم في توليد الصبغ الصرفية، إذ إن المد في اللغة العربية هو وظيفي، بحيث يتغير المعنى إذا تغير نوع الحركة طولا وقصرا، كما بين (فرق) و (فارق) حيث أن ما يفرق بينهما من الناحية الصوتية هو اختلاف طول الحركة بما ينجم عنه اختلاف في الدلالة. غير أن الحركات العربية الثلاث، وإن كانت تمثل الصوائت الأساسية في اللغة العربية، فإن هناك تغيرات تعترى هذه الحركات أهمها الإمالة والتفخيم والإشمام.

1 - فالإمالة تخص الفتحة الممدودة التي تنطق في اتجاه الكسرة الممدودة، أو الميل بالألف نحو الياء، ويعني هذا "أن اللسان يتقدم نحو الأمام حيث مخرج الكسرة وينقل جرس الفتحة نحو جرس الكسرة" بما يقابل الصوت (e) في الفرنسية في مثل (nez)².

2 - والإشمام هو نطق الكسرة الطويلة في اتجاه الضمة الطويلة في مثل (قيل، غيظ، سيء)، وفي هذه الحالة يقترب جرس الكسرة من جرس الحركة (u) في الفرنسية، في مثل (sur)³.

وأما التفخيم، فهو يقابل الإمالة، من حيث أنه يكون باتجاه اللسان إلى مؤخرة الفم، فينتقل الجرس من الفتحة إلى الحركة (o)⁴، كما في نطق كلمة صلاة في قراءة ورش عند تغليظ (تفخيم) اللام وربما لأجل هذا السبب كتبت كلمة الصلاة في المصحف بالواو (صلواة)، ويمكننا بناء على ما سبق أن نمثل صوائت اللغة العربية الأساسية و الفرعية في هذا المخطط:



ويمكن تسجيل الملاحظات التالية:

- 1 - مركز الدائرة يمثل السكون الذي يقبل نظريا أن يأخذ أية حركة.
- 2 - الدائرة الصغرى تمثل الحركات القصيرة.
- 3 - الدائرة الكبرى تمثل الحركات الطويلة.
- 4 - العلامات البارزة تمثل الصوائت الأساسية فيما تمثل العلامات الأخرى الصوائت الفرعية (الإمالة والإشمام والتفخيم).
- 5 - الفتحة (أو الألف) المفخمة هي وسط بين الفتحة والضمة المفخمة.
- 6 - الفتحة (الألف) المماله هي بين الفتحة والكسرة.
- 7 - الإشمام هو حركة تتنازعها الكسرة والضمة.
- 8 - المسافة بين محيطي الدائرتين تمثل الفرق الزمني بين الحركات القصيرة والحركات الطويلة.

إن الصوائت في العربية ذات دور هام في عملية التوليد الصرفي وفق الأوزان المختلفة، في حدود المادة الواحدة فالفرق بين كتب وكُتِب وكاتب، فرق يأتي عبر تنوع الصوائت لا الصوامت، ومن هنا تتحمل - مع حروف الزيادة- أخطر الوظائف في تركيب الصيغ الاشتقاقية للعربية⁵.

الخصائص الصرفية:

لعل من أشهر تصنيفات اللغة لدي اللسانيين، تصنيف شليجل (Schlegel)، الذي يقوم على أساس الخصائص الصرفية للغات، حيث ميز بين ثلاثة أنواع من اللغات:

- 1 - اللغات المتصرفة (Flescionnelles): وهي تتميز من الناحية الصرفية بأن كلماتها تتغير معانيها بتغير أبنيتها، وتتغير أشكال الكلمات فيها بطريقة غير خطية فتدمج صور المورفيمات بعضها في بعض.
 - 2 - اللغات الإلصاقية (Agglomérants): وهي تتميز من ناحيتي الصرف والتنظيم بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بغيره من أجزاء الجملة يشار إليها بحروف تلتصق بهذا الأصل سابقة له prefixes أو لاحقة suffixes وأشهر هذه اللغات التركية واليابانية.
 - 3 - اللغات العازلة (Isolantes): أو غير المتصرفة (Mono- syllabique): وهي تتميز من الناحية الصرفية بأن كلماتها تلازم صورة واحدة، وتدل على معنى ثابت لا يتغير، فهي غير قابلة للتصرف لا بواسطة تغيير البنية، ولا بواسطة إصاق حروف بها، ومن هذه اللغات اللغة الصينية.
- غير أن أكبر ما وجه إلى هذا التصنيف من نقد هو أن التصريف والإصاق والعزل، لا نكاد نجد لغة من اللغات تخلو منها⁶.

وبناء عليه، فإن إحدى اللغات إذا صنفتم ضمن نوع من الأنواع السابقة، فإن تصنيفها هو من باب

التغليب أي اعتمادا على السمة الغالبة على وحداتها الصرفية.

وبالرغم من أن اللغة العربية لا تخلو من ظواهر العزل والإصاق فإنها كغيرها من اللغات السامية تتميز بخاصيتي التصريف والاشتقاق بصفة خاصة، وأبرز ما يتصل بهذه السمة هو تلك القوة الإنتاجية للكلمات من الناحية الصرفية بالاعتماد على الوزن، فالاشتقاق بطريق الوزن، يمثل خاصية اللغة العربية التي تتميز بها عن

والتي ينبغي أن تراعى في التحليل اللساني لوحدها، وفي بناء المعجم العربي: فما هو الوزن؟
التفسير الصرفي للوزن:

إذا أخذنا بمجموعة من الأفعال العربية ذات أوزان متشابهة، وصنفناها فسنحصل على الجدول التالي:

أحسن	تحسن	حسن	استحسن
أمسك	تمسك	مسك	استمسك
أسلم	تسلم	سلم	استسلم
أمتع	تمتع	متع	استمتع

وإذا تأملنا هذا الجدول وجدنا نوعين من التناظر أو التماثل:

- على المحور العمودي: تناظر و تماثل للصوائت.

- على المحور الأفقي: تناظر وتماثل الصوامت (مادة الكلمة).

أما الصوامت المتماثلة على المحور العمودي فتمثل عناصر مساعدة للصوامت التي تشكل الوزن وليست من مادة الكلمة ولذلك يمكن تعريف الوزن صوتياً بأنه تماثل للصوائت والصوامت (التي لا تنتمي إلى مادة الكلمة)، من حيث نوعها وترتيبها، يرافقه - في الغالب - تماثل في الدلالة الصرفية العامة. (المبالغة والمطاوعة والطلب والتعديّة...).

وفي عمليات الاشتقاق ضمن المادة الواحدة، تمثل الصوامت المكونة لهذه المادة ثوابت الوزن، بينما تمثل الصوائت متغيراته.

وهكذا تنتج الكلمات من تركيب المادة الأصلية، أي المواد المكونة من حروف المعجم، مثل (ض، ر، ب) أو (ك، ت، ب)، ثم الوزن أو الصيغة المتمثلة في تلك القوالب التي تفرغ فيها المواد الأصلية⁷.

ذلك أن الكلمة العربية تتولد من تركيب المادة في الصيغة وليس للمادة الأصلية والوزن وجود محسوس بل هما كيانان اعتباريان يجردهما المحلل بالمقابلة بين أجزاء من الكلام⁸ ويمكن تشبيه مادة الكلمة و وزنها بالجسد والروح، لا يحقق أحدهما وظيفته ويظهر أثره إلا مع الطرف الثاني.

فمادة الكلمة من دون الوزن شيء مجرد، والوزن من دون مادة الكلمة كيان غير محسوس، وهو يشبه الوزن الشعري من هذه الحيثية.

في لغات أخرى كالفرنسية قد يعتمد في توليد المعاني الصرفية على الإصاق كما في كلمة *Joueur*، التي دلت فيها اللاحقة (*eur*) على اسم الفاعل، بينما نقول في العربية (لاعب) فيكون الوزن (فاعل) هو الدال على معنى اسم الفاعل⁹.

والأمر نفسه بالنسبة إلى التقابل بين البناء للمعلوم و البناء للمجهول، الذي يعبر عنه في الفرنسية بأداة مساعدة (*est*) ولكن العربية تستعمل الوزن (مجموعة الصوائت) للتفريق بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول¹⁰.

ويرى تمام حسان أن المعاني الوظيفية، لا تفيدها الزوائد ولكن تفيدها الصيغ ككل، إذ إننا لو أسندنا هذه المعاني الوظيفية إلى الزوائد لخرجنا بها عن طابع الزيادة إلى طابع الإلصاق... أما الزوائد فلا يمكن أن تنسب إليها بمفرها معاني صرفية، لاسيما وأن استخلاص الزائد وعزله عن الكلمة ليس ممكنا في حالات كالتضعيف والتكرار وغيرها، لذلك كان المنهج السليم أن ننسب المعنى الوظيفي الصرفي إلى الصيغة المزيدة كلها لا إلى زوائدها¹¹.

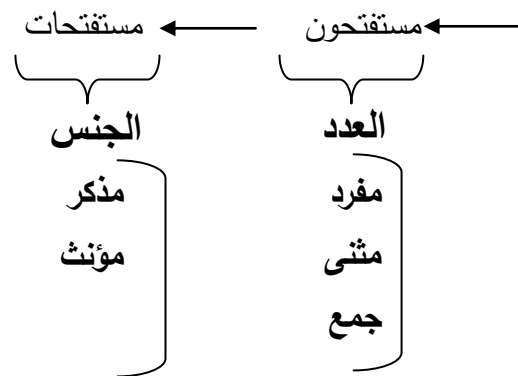
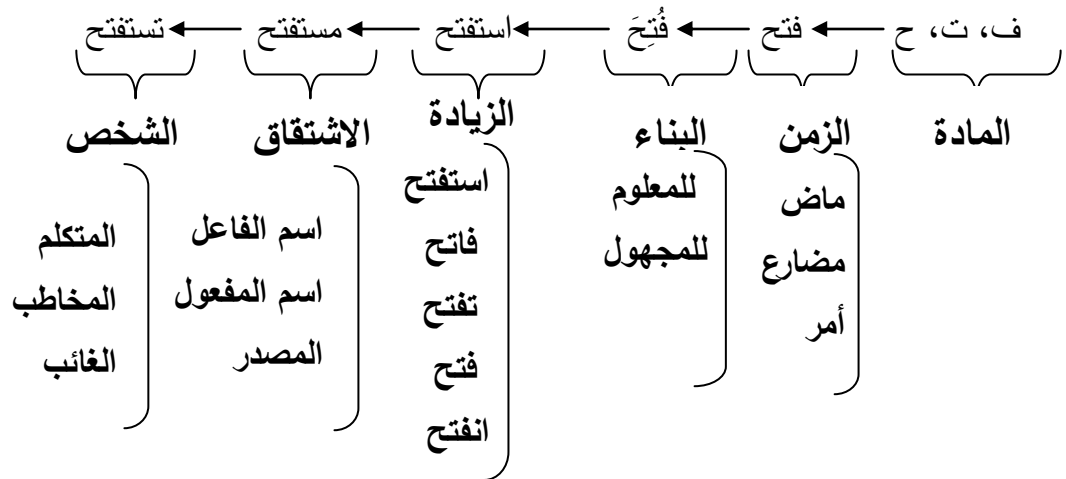
وانطلاقاً من المادة المعجمية، وعن طريق الوزن يمكن توليد عدد كبير من الكلمات (أسماء وأفعال)، بحسب المتغيرات الصرفية، وأهم هذه المتغيرات أو المقولات الصرفية (الزمن والبناء للمجهول والزيادة والاشتقاق والشخص والجنس والعدد).

إن بعض هذه المقولات يخص الأفعال (الزمن والبناء للمجهول والشخص)، وبعضها يخص الأسماء (الاشتقاق)، وبعضها تشترك فيه الأفعال والأسماء (الزيادة، والجنس والعدد).

مخطط التوليد الصرفي:

إذا أخذنا مادة (ف، ت، ح) على سبيل المثال، فإننا يمكن أن نولد منها العدد الكثير من الكلمات وفق

المخطط الآتي:



وهكذا يمكننا نظريا بإتباع هذا المخطط أن نولد من مادة واحدة ك (ف، ت، ح) حوالي 178 كلمة مختلفة اعتمادا على مختلف الصيغ المزيدة للأفعال وما يشتق منها من أسماء، وبمراعاة المتغيرات الصرفية المذكورة (الزمن والبناء والشخص والجنس والعدد) بالنسبة إلى الأفعال و (الجنس والعدد) بالنسبة إلى الأسماء. وبذلك يمكن تشبيه التوليد الصرفي في اللغة العربية بالمتتالية الهندسية في الرياضيات.

الخصائص الصوتية و الصرفية وبناء المعجم العربي:

إن دراسة الخصائص الصوتية والصرفية لأي لغة، يعد مقدمة لا بد منها للمعجم، لاسيما وأن المعجم ليست غايته الوحيدة شرح الكلمات، وإنما يتوقع منه أن يقدم أربع معلومات أساسية هي طريقة كتابة الكلمات وطريقة النطق بها ونوعها الصرفي ثم شرح معناها¹².

ولا شك أن بيان طريقة النطق وطريقة الكتابة والتصنيف الصرفي للوحدات اللغوية، كل ذلك يتطلب إماما بأهم الخصائص الصوتية والصرفية للغة التي يشرحها المعجم.

ولقد أدرك المعجميون العرب هذه الحقيقة منذ وقت مبكر؛ فالخليل بن أحمد

(ت 175 هـ) بدأ معجمه "العين" بالحديث عن الأصوات ومخارجها وصفاتها وقواعد ائتلافها، ثم تناول مسائل صرفية تتعلق بطرق الوصول إلى الكلمات من خلال الحروف وأصوات الطبيعة، وبنى معجمه صوتيا وصرفيا بالاعتماد على نظرية التقاليب¹³.

وهذا ينم - برأينا - عن إدراك صائب ومبكر لطبيعة اللغة العربية صوتيا وصرفيا، وتصور ناضج للعمل المعجمي أيضا.

إن هذا التقليد استمر منذ الخليل، لاسيما ما يتعلق بالمداخل المعجمية حيث تتخذ مادة الكلمات أساسا لهذه المداخل، على اختلاف بين المعجميين في ترتيب مواد المعاجم ورتبة الحرف المبدوء به، ولكنهم في كل الحالات يبقون عن صلة الرحم بين الكلمات ليس على أساس المبنى الصرفي، وإنما يلجؤون إلى روابط الكلمات، كما أنهم لا ينسبون إلى حروف المادة معنى معيناً، خاصة مع إدراكهم إمكان تعدد المعاني بين الكلمات التي تشترك في هذه الأصول.... ولذلك كان الإجراء المفضل عندهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا نفهم منها كلمة ما¹⁴.

وهذا الأمر يعد نقطة فارقة بين منهجين في التأليف المعجمي، المنهج العربي الذي يرى أن أصول الكلام هي من الأصوات الصامتة وحدها، لذلك ينظر إلى أي إضافة على أنها زيادة صرفية، إن كانت تمس الصور الحرفية للأصول، أما الأصوات الصائتة القصيرة فلا تعد زيادات كما لا تعد أصولاً، ومن هنا اعتبر مثلا أن أصل (قتل) هو القاف والتاء واللام (ق،ت،ل) دون ضبط، على حين أنها عندما تغدو "قاتل" تكون الألف حرفاً زائداً على الأصل¹⁵.

أما المنهج الآخر (الغربي) فيجعل الأصل مشتركا بين الصوامت والصوائت، لذلك عدت الفتحة في نحو "قتل" شيئا لازما تحول إلى صوت طويل هو قاتل¹⁶.

أما اللغة العربية فتعتمد في توليد الكلمات - كما ذكرنا- على الصيغة التي تصب فيها الأصول، وبهذا يمكن اعتبار الصيغة مورفيما كلياً مؤلفاً من أجزاء أو عناصر تضم مجموعة من الصوائت (علامات الضبط)، وحروف الزيادة¹⁷.

وإذا جاز من وجهة النظر الغربية أن يكون عدد الكلمات مساوياً لعدد المداخل المعجمية فإن هذه الرؤية لا يمكن أن تصدق على المعجم العربي، لأن عدد الكلمات فيه أكبر بكثير من عدد المداخل المعجمية، لذلك ربما كانت المعجم الأجنبية أكثر مداخل من المعاجم العربية، ولكن هذا ليس دليلاً على أنها أكثر منها من حيث عدد الكلمات، ما دامت المعاجم العربية لا تعدد الكلمات بمداخل مستقلة وإنما تجعل من مادة الكلمة مدخلاً معجمياً¹⁸.

وإن اعتماد منهج العجميين في هذا من شأنه أن يجيب عن بعض الأسئلة التي أثارها النحاة واختلفوا بشأنها، ومن هذه المسائل، ما يتعلق بأصل الاشتقاق هل هو الفعل أم المصدر؟.

فالأصح أن الأصل ليس المصدر ولا الفعل وإنما هو المادة المعجمية أي سلسلة الحروف الصامتة التي ينطبق عليها الوزن وهي وحدة مجردة لا تملك صورة خطية ولا وظيفة نحوية، ولا تنتمي إلى أجزاء الكلام، فلا هي اسم ولا فعل، ولا حرف، بل هي عنصر صوري وكيان مجرد ينتمي على البنية العميقة.

يقول تمام حسان: "إذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات فينبغي لنا ألا نجعل واحدة منها أصلاً للأخرى وإنما نعود إلى صيغ المعجمين بالربط بين الكلمات بأصول المادة فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثة أساساً منهجنا في دراسة الاشتقاق، ولذلك نعتبر الأصول الثلاثة أصل الاشتقاق، فالمصدر مشتق منها والفعل الماضي مشتق منها كذلك، وبهذا لا نستطيع أن ننسب إلى هذه الأصول الثلاثة أي معنى معجمي"¹⁹.

وقد ظهرت في العصر الحديث بعض المعاجم التي سارت على طريقة الغربيين في تبويب مواد المعجم، اعتماداً على الصيغ الفعلية للكلمات دون مراعاة جذورها، ولكن هذه المعاجم بعزلها للكلمة تحرم الدارس من فرصة الاطلاع على ما يدور في فلك الكلمات من مشتقات²⁰.

كما أن منهجها لا يتوافق مع طبيعة اللسان العربي وروحه، وهذه المعاجم وإن كانت لا تخلو من فائدة للدارس والباحث، فإنها تبقى استثناء من قاعدة التأليف المعجمي في اللغة العربية.

الهوامش:

- 1 أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات. دار الفكر دمشق ص 89
- 2 مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا المكتبة العصرية بيروت ص 128.
- 3 المرجع نفسه ص 128.
- 4 المرجع نفسه ص 129
- 5 تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص 72 .
- 6 محمد أسعد النادري: فقه اللغة، المكتبة العصرية، صيد بيروت، ط 1، 1425هـ، 2005/، ص 107.